وقد دخل هذه القصة بعض الإسرائيليات ، منها أن سليمان - عليه السلام - جعل الصرح على هذه الصورة لتكشف بلقيس عن ساقيها ؛ لأنه بلغه أنها مُشْعرة الساقين ، إلى غير هذا من الافتراءات التي لا تليق بمقام النبوة(١) .

ثم يأتي بنا الحق سبحانه إلى نبي آخر في موكب الأنبياء :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

مرَّتْ بنا قصة نبي الله صالح - عليه السلام - مع قومه ثمود في سورة الشعراء ، وأُعيد ذكرها هنا ؛ لأن القرآن يقصُّ على رسول الله من موكب الأنبياء ما يُثبِّت به فؤاده ، كلّما تعرض لأحداث تُزلزل الفؤاد ، يعطيه الله النَّجْم من القرآن بما يناسب الظروف التي يمرُّ بها ، وهذا ليس تكراراً للأحداث ، إنما توزيع للقطات ، بحيث إذا تجمعتْ تكاملتْ في بناء القصة .

وقوله سبحانه ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [النمل] لا بُدَّ أنه أُرسل بشيء ما هو ؟ ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [النمل] لذلك سُمِّيت (أَنْ) التفسيرية ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ .. ﴿٧﴾ ﴾ [القصص] ماذا ؟ ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [القصص]

وقد يأتي التفسير بجملة ، كما في : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ ..

(١) أورد ابن كثير في تفسيره (٣/٣٦٥) هذه القصة ، وعزاه لمحمد بن كعب القرظي وابن عباس ومجاهد وعكرمة والسدي وابن جريج . وقد ذكرها الدكتور محمد أبو شهبة في كتابه « الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير » (ص ٢٤٨) .

﴿ (١٢٠) ﴾ [طه] بأى شىء ؟ ﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠)﴾ [طه]

فشرح الوسوسة وهى شىء عام بقوله : ﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ .. (١٢٠)﴾ [طه] فرسالتنا إلى ثمود ملخصها ومؤداها ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ .. (٤٥)﴾ [النمل]

والعبادة كما ذكرنا أن نطيع الله بفعل ما أمر ، وبترْك ما نهى عنه وزَجر ، أما ما لم يردْ فيه أمر ولا نَهْى فهو من المباحات إنْ شئتَ فعلتها ، وإنْ شئت تركتها ، وإذا ما استعرضنا حركة الأحياء والخلفاء فى الأرض وجدنا أن ٥٪ من حركتهم تدخّل فيها الشارع بافعل ولا تفعل ، أما الباقى فهو مُباح .

إذن : فالتكليف منُوط بأشياء يجب أنْ تفعلها ؛ لأن فيها صلاحَ مجتمعك ، أو أشياء يجب أن تتركها ؛ لأن فيها فساد مجتمعك .

فماذا كانت النتيجة ؟

﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥)﴾ [النمل]

والاختصام أنْ يقف فريق منهم ضد الآخر ، والمراد أن فريقاً منهم عبدوا الله وأطاعوا ، والفريق الآخر عارض وكفر بالله .

وقد وقف عند هذه الآية بعض الذين يحبون أنْ يتهجَّموا على الإسلام وعلى أسلوب القرآن ، وهم يفتقدون الملكة العربية التى تساعدهم على فَهْم كلام الله ، وإنْ تعلَّموها فنفوسهم غير صافية لاستقبال كلام الله ، وفيهم خُبْث وسُوء نية .

واعتراضهم أن ﴿فَرِيقَانِ .. (٤٥)﴾ [النمل] مثنى و ﴿يَخْتَصِمُونَ (٤٥)﴾ [النمل] دالة على الجمع ، فلماذا لم يَقُلْ : يختصمان ؟ وهذه لغة القرآن فى مواضع عدة .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا .. ﴿٩﴾ ﴾ [الحجرات]

والقياس يقتضى أن يقول : اقتتلتا . لكن حين نتدبَّر المعنى نجد أن الطائفة جماعة مقابل جماعة أخرى ، فإنْ حدث قتالٌ حمل كُلٌّ منهم السلاح ، لا أن تتقدم الطائفة بسيف واحد ، فهم فى حال القتال جماعة .

لذلك قال (اقتتلوا) بصيغة الجمع ، أما فى البداية وعند تقرير القتال فلكُلٍّ طائفة منهما رأيٌ واحد يعبر عنه قائدها ، إذن : فهما فى هذه الحالة مثنى .

كما أن الطائفة وإنْ كانت مفردة لفظاً إلا أنها لا تُطلَق إلا على جماعة ، فيقف كل واحد من الجماعة بسيفه فى مواجهة آخر من الطائفة الأخرى .

وهنا أيضاً ﴿ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [النمل] أى : مؤمنون وكافرون ﴿ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [النمل] لأن كل فرد فى هذه الجماعة يقف فى مواجهة فرد من الجماعة الأخرى .

وفى موضع آخر ، شرح لنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ هذه المسألة ، فقال سبحانه : ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ[1] مِنْ

(١) المقامع : جمع مقمعة ، وهى خشبة أو حديدة يُقمع بها الحيوان ليُذلّ ويطيع . وقوله ﴿ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحج] أى : يُضربون بها ، كلما أرادوا الخروج من النار أعيدوا فيها بالضرب بالمقامع إذلالاً لهم . [القاموس القويم ٢/ ١٣٤] .

حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢)﴾ [الحج]

أما الفريق الآخر : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤)﴾ [الحج]

فبيَّن لنا الحق ـ سبحانه ـ كل فريق منهما ، وبيَّن مصيره وجزاءه .

ونلحظ هنا ﴿فَإِذَا .. (٤٥)﴾ [النمل] يسمُّونها الفجائية ، ويُمثِّلون لها بقولهم : خرجتُ فإذا أسَدٌ بالباب ، والمعنى : أنك فُوجئت بشيء لم تكُنْ تتوقعه ، كذلك حدث من الكافرين من قوم ثمود حين قال لهم نبيهم ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٤٥)﴾ [النمل] لكن يفاجئوننا بأنهم فريقان : مؤمنون وكافرون .

ومنطق العقل والحق والفطرة السليمة يقتضى أنْ يستقبلوا هذا الأمر بالطاعة والتسليم ، ولا يختلفوا فيه هذا الاختلاف : فريق فى الجنة وفريق فى السعير ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾ [الانفطار]

وقالوا : إن الله تعالى لا يرسل الرسل إلا على فساد فى المجتمع ، الخالق عز وجل خلق فى الإنسان النفس اللوامة التى تردُّه إلى رُشْده وتنهاه ، والنفس المطمئنة التى اطمأنتْ بالإيمان ، وأمنت الله على الحكم فى افعل ولا تفعل ، والنفس الأمَّارة بالسوء ، وهى التى لا تعرف معروفاً ، ولا تنكر مُنكَراً ، ولا تدعو صاحبها إلا إلى السوء .

والله ـ عزَّ وجلَّ ـ رب ، ومن عادة الرب أنْ يتعهَّد المربَّى ليؤدى

غايتـه على الوجه الأكمل ، أرأيتم أباً يُربِّى أبناءه إلا لغـاية ؟ وما دام هو سبـحانه ربى فلا يأمـرنى إلا لصالحى ، وصالح مـجتمـعى ، فلا شىء من طاعتنا يعـود عليه بالنفع ولا شىء من معاصيـنا يعود عليه بالضرر ؛ لأنه سبحانه خلق الكون كله بصفات الكمال المطلق . إذن : كانت الفطرة السليمة تقتضى استقبال أوامر الله بالقبول والتسليم .

وهذه الخـصومـة تجمـع المؤمنين فى جـهـة ؛ لأنهم اتفقـوا على الإيمان . والكافـرين فى جهـة ؛ لأنهم اتفقـوا على الكفر . لكن يمـتاز المؤمنون بأن يظل وفـاقهم إلى نهاية العمر ، بل وعـند لقاء الله تعالى فى الجنة ؛ لأنهم اتفـقـوا فى الدنيا فى خـطة العمل وفى الآخـرة فى غاية الجزاء ، كما يقول تعالى : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

أما الكفـار فسوف تقـوم بينهم الخصـومات يوم القيـامة ، ويلعن بعـضهم بعـضاً ، ويتـبرأ بعـضهم من بعض ، والقـرآن حين يُـصوِّر تخاصم أهل النار يقول بعد أنْ ذكر نعيم أهل الجنة :

﴿ هَـٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ[1] وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا

(١) الحميم من ألفاظ الأضداد ، يكون الماء البارد ، ويكون الماء الحار . والحميم : العَرَق . [لسان العرب ـ مادة : حمم] والغساق : ما يغسق ويسيل من جلود أهل النار وصديدهم من قيح ونحوه . [اللسان ـ مادة : غسق] .

ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ (٦٢) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤) ﴾ [ص]

إذن : فالخصومة فى الدنيا بين مؤمن وكافر ، أما فى الآخرة فبين الكافرين بعضهم البعض ، بين الذين أَضلُّوا والذين أُضلُّوا ، بين الذين اتَّبعُوا ، والذين اتُّبعوا .

﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) ﴾ (١)

لما ذُكرت قصة ثمود فى الشعراء ، لم تذكر شيئاً عن استعجال السيئة ، فما هى السيئة التى استعجلوها وربهم عز وجل يلومهم عليها ؟ هى قولهم: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) ﴾ [الأعراف]

وعجيب أَمْر هؤلاء القوم ، ماذا يفعلون لو نزل بهم ؟ قالوا معاً : حينما تأتينا السيئة نستغفر ونتوب يظنون أن الاستغفار والتوبة تُقبل منهم فى هذا الوقت .

والحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَـٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَـٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨) ﴾ [النساء]

---

(١) قال مجاهد : بالعذاب قبل الرحمة ، وقال القرطبى : المعنى : لم تؤخرون الإيمان الذى يجلب إليكم الثواب ، وتقدمون الكفر الذى يُوجب العقاب ؟ [تفسير القرطبى ٥٠٩٧/٧] .

فلماذا تستعجلون السيئة والعذاب ، وكان عليكم أن تستعجلوا الحسنة . واستعجالكم السيئة يحول بينكم وبين الحسنة ؛ لأنها لن تُقبل منكم ﴿لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦)﴾ [النمل]

﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧)﴾

اطَّيَّر : استعمل الطير ، وهذه عملية كانوا يلجئون إليها عند قضاء مصالحهم أو عند سفرهم مثلاً ، فكان الواحد منهم يُمسك بالطائر ثم يرسله ، فإنْ طار ناحية اليمين تفاءل وأقبل على العمل ، وإنْ طار ناحية الشمال تشاءم ، وامتنع عما هو قادم عليه ، يُسمُّونها السانحات والبارحات[(١)] . فالمعنى : تشاءمنا منك ، وممَّنْ اتبعك .

﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ .. (٤٧)﴾ [النمل] يعني : قضاء مقضيٌّ عليكم ، وليس للطير دَخْل في أقداركم ، وما يجري عليكم من أحكام ، فكيف تأخذون من حركته مُنطلقاً لحركتكم ؟ إنما طائركم وما يُقدَّر لكم من عند الله قضاء يقضيه .

وفي آية يس : ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ .. (١٩)﴾ [يس] يعني : تشاؤمكم هو كفركم الذي تمسكتم به .

لكن ، لماذا جاء التشاؤم هنا ، ونبيهم يدعوهم إلى الله ؟ قالوا : لأنه بمجرد أنْ جاءهم عارضوه ، فأصابهم قحط شديد ، وضنَّتْ عليهم السماء بالمطر فقالوا : هو الذي جرَّ علينا القَحْط والخراب .

---

(١) السانح : ما أتاك عن يمينك من ظبي أو طائر أو غير ذلك . والبارح : ما أتاك من ذلك عن يسارك [لسان العرب - مادة : سنح] .

وقوله : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [النمل] الفتنة : إما بمعنى الاختبار والابتلاء ، وإما بمعنى فتنة الذهب فى النار .

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ (١) يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

وهذه المسألة أيضاً لقطة جديدة من القصة لم تُذكَر فى الشعراء ، وهكذا كل القَصَص القرآنى لو تدبَّره الإنسان لوجده لقطات متفرقة ، كلٌّ منها يضيف جديداً ، ويعالج أمراً يناسب النجْم القرآنيّ الذى نزل فيه لتثبيت رسول الله ﷺ .

والرَّهْط : اسم جمع ، لا واحدَ له من لفظه ، ويدل على العدد من الثلاثة إلى العشرة ، فمعنى ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [النمل] كأنهم كانوا قبائل أو أسراً أو فصائل ، قبيلة فلان وقبيلة فلان .. إلخ .

﴿ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [النمل] فلماذا قال بعدها : ﴿ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [النمل] ؟ قالوا : لأن الإنسان قد يُفسد فى شىء ، ويُصلح فى آخر ، كالذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وهؤلاء عسى الله أنْ يتوبَ عليهم .

أما هؤلاء القوم ، فكانوا أهل فساد مَحْض لا يعرفون الصلاح ، فإنْ رأوْه عمدوا إليه فأفسدوه ، فكأنهم مُصِرُّون على الإفساد ، وللإفساد قوم ينتفعون به ، لذلك يدافعون عنه ويعارضون فى سبيله أهل الإصلاح والخير ؛ لأنهم يُعطِّلون عليهم هذه المنفعة .

(١) ذكر ابن عباس أسماء هؤلاء التسعة ، فقال : كان أسماؤهم زعمى وزعيم وهرمى وهريم وداب وهواب ورياب وسيطع ، وقدار بن سالف عاقر الناقة . (نقله السيوطى فى الدر المنثور ٦/ ٣٧٠) .

وقلنا : إن صاحب الدين والخلق والمبادىء فى أىّ مصلحة تراه مكروهاً من هذه الفئة التى تنتفع من الفساد ، يهاجمونه ويتتبعونه بالهَمْز واللمز ، يقولون : حنبلى ، وربما يهزأون به .. إلخ ؛ لذلك لم يقف فى وجه الرسل إلا هذه الطائفة المنتفعة بالفساد .

﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) ﴾

﴿ قَالُوا .. (٤٩) ﴾ [النمل] أى : الرهط ﴿ تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ .. (٤٩) ﴾ [النمل] انظر إلى هذه البجاحة وقلة العقل وتفاهة التفكير : إنهم يتعاهدون ويُقسمون بالله أنْ يقتلوا رسول الله ، وهذا دليل غبائهم ، وكأن الحق - تبارك وتعالى - يجعل لهم منافذ يظهر منها حُمْقهم وقلّة عقولهم .

ومعنى ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ .. (٤٩) ﴾ [النمل] نُبيِّته : نجعله ينام بالليل ، والبيتوتة أن ينقطع الإنسان عن الحركة حالَ نومه ، ثم يعاود الحركة بالاستيقاظ فى الصباح ، لكن هؤلاء يريدون أنْ يُبيِّتوه بيتوتة لا قيامَ منها . والمعنى : نقتله .

فإذا ما جاء أولياء الدم يطالبوننا بدمه ﴿ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ .. (٤٩) ﴾ [النمل] أى : ولىّ الدم من عُصْبته ورحمه ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) ﴾ [النمل] أى : ما شهدنا مقتل أهله ، فمن باب أَوْلَى ما شهدنا مقْتله ، ولا نعرف عنه شيئاً .

هذا ما دبره القوم لنبى الله صالح - عليه السلام - يظنون أن الله يُسْلِم رسوله ، أو يُمكِّنهم من قتله ، فحاكوا هذه المؤامرة ولم يفتهم تجهيز الدفاع عن أنفسهم حين المساءلة ، هذا مكرهم وتدبيرهم .

﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

معنى ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [النمل] أى : ما دبّروه لقتل نبى الله ورسوله إليهم ﴿ وَمَكَرْنَا مَكْرًا .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [النمل] وفَرْق بين مكر الله عز وجل ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [آل عمران] وبين مكْر الكافرين ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر]

إذن : حين تمكر بخير ، فلا يُعَدُّ مكْراً ، إنما إبطال لمكْر العدو ، فلا يجوز لك أنْ تتركه يُدبِّر لك ويمكُر بك ، وأنت لا تتحرك ؛ لذلك قال تعالى ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال] لأنهم يمكرون بشرٍّ ، ونحن نمكر لدفع هذا الشر لِنُصْرة رسولنا ، ونجاته من تدبيركم .

والمكْر : مأخوذ من قولهم : شجرة ممكورة ، وهذا فى الشجر رفيع السَّاق المتسلق حين تلتفُّ سيقانه وأغصانه ، بعضها على بعض ، فلا تستطيع أن تُميِّزها من بعضها ، فكُلٌّ منها ممكور فى الآخر مستتر فيه ، وكذلك المكر أن تصنع شيئاً تداريه عن الخصم .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النمل] أى : أنه مكْر محبوك ومحكم ، بحيث لا يدرى به الممكور به ، وإلا لا يكون مكْراً .

وحين نتأمل : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر] و ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [آل عمران] نعلم أن المكر لا يُمدح ولا يُذَمُّ لذاته ، إنما بالغاية من ورائه ، كما فى قوله تعالى عن الظن : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [الحجرات] فالظن منه الخيِّر ومنه السيىء .

ونسمع الآن تعبيراً جديداً يعبر عما يدور فى المجتمع من انتشار المكر وسوء الظن ، يقولون : الصراحة مكر القرن العشرين ، فالذى يمكر بالناس يظن أنهم جميعاً ماكرون فلا يصدق كلامهم ، ويحتاط له حتى إنْ كان صدقاً ، فأصبح المكر وسوء الظن هو القاعدة ، فإنْ صارحتَ الماكر لا يُصدقك ويقول فى نفسه : إنه يُعمى علىَّ أو يُضلِّلنى .

﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) ﴾

أى : تأمل ما حاق بهم لما مكروا بنبى الله ، واتفقوا على التبييت له وقَتْله ، يُرْوى أنهم لما دخلوا عليه أُلْقِى على كل واحد منهم حجر لا يدرى من أين أتاه ، فهلكوا جميعاً ، فقد سخَّر الله له ملائكة تولَّتْ حمايته والدفاع عنه[1] .

أو : أن الله تعالى صنع له حيلة خرج بها وذهب إلى حضرموت ، وهناك مات عليه السلام ، فَسُمِّيت حضرموت[2] . وآخرون قالوا : بل ذهبوا ينتظرونه فى سفح جبل ، واستتروا خلف صخرة لِيُوقِعوا به فسقطت عليهم الصخرة فماتوا جميعاً .

المهم ، أن الله دمرهم بأىِّ وسيلة من هذه ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ .. (٣١) ﴾ [المدثر] لقد أرادوا أنْ يقتلوه وأهلَه ، فأهلكهم الله .

---

(١) قال ابن عباس : أرسل الله تعالى الملائكة تلك الليلة ، فامتلأت بهم دار صالح ، فأتى التسعة دار صالح شاهرين سيوفهم ، فقتلتهم الملائكة رضخاً بالحجارة ، فيرون الحجارة ولا يرون من يرميها . [تفسير القرطبى ٥١٠٠/٧] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٥١٠٢/٧) : « خرج صالح بمن آمن معه إلى حضرموت ، فلما دخلها مات صالح ، فسميت حضرموت » .

﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً .. (٥٢) ﴾ [النمل] دليل على أن الله أهلكهم فلم يُبْقِ منهم أحداً ، وتُركَتْ بيوتهم خاوية بسبب ظلمهم ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً .. (٥٢) ﴾ [النمل] عبرة وعظة ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) ﴾ [النمل]

وفى مقابل إهلاك الكافرين :

(١)

﴿ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣) ﴾

فمن آمن واتقى من قوم صالح نجّاه الله عز وجل من العذاب الذى نزل بقومهم قوم ثمود .

انتهى الكلام هنا عن قصة ثمود ، وحين نقارن الأحداث هنا بما ورد فى سورة الشعراء نجد أحداثاً جديدة لم تُذكَر هناك ، كما لم يذكر هنا شيئاً عن قصة الناقة التى وردتْ هناك ، مما يدلُّ على تكامل لقطات القصة فى السور المختلفة .

ثم يقصُّ علينا طرفاً من قصة نبى آخر ، وهو لوط عليه السلام :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) ﴾

---

(١) قيل : آمن بصالح قدر أربعة آلاف رجل ، أما الباقون فقد خرج بأبدانهم ـ فى قول مقاتل وغيره ـ خُرّاج مثل الحمص ، وكان فى اليوم الأول أحمر ، ثم صار من الغد أصفر ، ثم صار فى الثالث أسود .

(لُوطًا) جاءت منصوبة على أنها مفعول به ، والتقدير : أرسلنا لوطًا ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٤٥) ﴾ [النمل]

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) ﴾ [النمل] فذكر الداء الذى استشرى فيهم . وفى سورة الشعراء قال سبحانه ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) ﴾ [الأعراف] وهنا قال : ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) ﴾ [النمل] أى : تتعالمون بها وتتجاهرون بها ، فدلَّ على أنهم أجمعوا عليها وارتضوْهَا ، وأنه لم يَعُدْ عندهم حياء من ممارستها .

أو : يكون المعنى : وأنتم تبصرون ما حلَّ بأصحاب الفساد قبلكم من أقضية الله عليهم .

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) ﴾

هذا بيان وتفصيل للداء وللفاحشة التى انتشرت بينهم ، ومعنى : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥) ﴾ [النمل] الآية فى ظاهرها أنها تتعارض مع ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) ﴾ [النمل] لكن المعنى ﴿ تَجْهَلُونَ (٥٥) ﴾ [النمل] الجهل هنا ليس هو ضد العلم ، إنما الجهل بمعنى السَّفه .

والبعض يظن أن الجهل ألاَّ تعلم ، لا إنما الأمية هى ألاَّ تعلم ، أمَّا الجهل فأنْ تعلم قضية مخالفة للواقع ؛ لذلك الأميُّ أسهل فى الإقناع ؛ لأنه خالى الذِّهْن ، أمَّا الجاهل فلديه قضية خاطئة ، فيستدعى الأمر أن تنزع منه قضية الباطل ، ثم تُدخل قضية الحق ، فالجهل - إذن - أشقُّ على الدعاة من الأمية .